المستوى الجامعى فى مصر

بين الجامعة والأزهر

للدكتور محمد البهى

لجامعة فؤاد الأول بالقاهرة دعاة ينادون بلا ملل وفى تكرار يشبه الإلحاح بمنزلة « الجامعة » وبالقداسة الجامعية وباستقلال « الجامعة » وبمنحها سلطة مطلقة ليست فى البحوث العلمية فحسب ، بل أيضاً فى التعليم المدرسى والتثقيف الشعبى

وللأزهر من رجاله وأبنائه من يكثر الحديث عن الأزهر وعن تقصيره وعن المسافة التى يبتعد بها الأزهر فى سيره العلمى عن المثال الجامعى

وبقدر نموّ سيطرة الدعاة لجامعة فؤاد الأول على الرأى العام المصرى ، بقدر ما يفقد الأزهر بمن يكثرون الحديث عن بطئه أو جموده فى السير الجامعي ، من سلطان كان له على الرأى العام الإسلامى وكسبه لمنزلته من العقيدة ومن الثقافة الشعبية

وربما كان هناك غلو فيما ينادى به دعاة جامعة فؤاد الأول ، وربما كان هناك غلو أيضاً فيما يصوره بعض الكاتبين الأزهريين يحول بين الإنسان الذى تؤثر فيه الدعاية ، إيجابية أو سلبية ؛ وتتحكم فيه العاطفة ، وبين معرفة الواقع . والرأى العام هو ذلك الإنسان فى صورة مكبرة

وربما كانت مبالغة دعاة الجامعة لأنهم من رجال العصر ، وربما كانت مبالغة بعض الكتاب الأزهريين لأنهم من رجال العهود السابقة وهى عهود قريبة إلى الطبيعة الساذجة التى لم تلتو بعد

ولكن وراء الداعين من رجال جامعة فؤاد الأول ، ووراء المتحدثين عن الأزهر من رجال الأزهر حقيقة تدرك وتتضح فى الإدراك ، وتصور وتتضح كذلك فى التصوير ، ومدركها من غير هؤلاء وهؤلاء ، وهو المؤرخ وبالأخص مؤرخ الحياة العقلية والعلمية لشعب من الشعوب . ومصورها من غيرهم أيضاً ، وهو معالج الظواهر الخاصة بأمة من الأمم .

ما هو المثال الجامعى الذى إذا وجد كان للجامعيين دولة هى دولة العلم والفكر ، وكان للجامعة قداسة هى قداسة الإرشاد الواضح فى النواحى المختلفة لحياة الجماعة الخاصة ثم للانسانية ؟ المثال الجامعى يكون إذا تجردت البحوث عن العوامل الشخصية ؛ عن الطائفية وعن الحزبية وعن الدعاية . يوجد المثال الجامعي إذا خلصت البحوث للعلم — بقدر ما يمكن — وبعبارة أخرى إذا غلبت الحكمة على العاطفة والغريزة وسيطر العقل على النفس .

هل حققت جامعة فؤاد الأول هذا المثال الجامعى كما تعطيه دعاية الداعين ؟ وهل يبتعد الأزهر كثيراً عن هذا المثال الجامعى كما يفرضه تصوير المتحدثين عن تقصير الأزهر من الأزهريين ؟

جامعة فؤاد الأول حوّلت المدارس العالية لوزارة المعارف فى سنة ١٩٢٥ إلى كليات . وجعلت داخل الكلية الواحدة أقساماً مختلفة حسب مواد الدراسة . وألحقت بكل قسم مكتبة

إنما نحبّ مصر الغالية مأخوذين بسحرها الأخّاذ ، ومفتونين بجمالها الفتّان وهل فى الدنيا أكرم أو أجل من مصر ؟

إن مصر لم تبخل بالعيش على من يحارب الأدب والبيان ، ولو شئت لقلت إن مصر تكرم أعداء الفكر والعقل تأسّياً بكرم الله ، والكريم يُفضِل على الطفيليين بأغزر مما يفضل على المدعوّين

الدنيا فى حرب ، والقتال تدور رحاها حول الحدود المصرية ، ومجلة الرسالة لا تجد قوتها من الورق إلا بشقّ النفس

وبالرغم من هذا وذاك فجذوة الفكر فى اشتعال ، وصوت مصر الأدبىّ فى ارتفاع . والعاقبة للصابرين

ألآن عرفتُك ، يا وطنى ، عرفتُك عرفتك

لا تستطيع الخطوب أن تُخرس بُلبلاً يغرّد فى رياضك الغنّاء ، ولا يملك الدهر أن يُسكت صرير القلم فى صحائفك البيضاء

وطنى

لو ظهرتْ أشراط الساعة ، نذيراً بقيام القيامة ، وخرست الألسنة وجفّت الأقلام ، وشُغل المرء عن أخيه ، وزوجته وبنيه ، لرأيت من واجبى أن أرفع القلم لصوتك وقلمك ، وأن أجعل آيتك فى البيان خاتمة آيات الوجود

وطنى

أنت أقدم وطن وأعظم وطن خطّ بالقلم ، وسطّر مآسى الأرواح ، ومصاير القلوب ، فإلك فى اللأواء أهب سنان قلمى .

وطنى

إن جهلت مَن أنا ، فإنى أعرف مَن أنت ، والحياة صراعٌ بين الجهل والعلم ، واليأس والرجاء ، وسأعرف كيف أجزيك على فنائى فيك

زكى مبارك

خاصة به فوق المكتبة العامة . وعينت أساتذة مصريين وغير مصريين ، ومساعدين للأساتذة ، ومدرسين ، ومعيدين . أى أنها أتمت النظام الجامعى .

والأزهر الذى أراد أن يكون جامعة منذ عشر سنوات تقريباً حوّل الدراسة العالية فيه إلى كليات وألحق بها أقساماً للدراسات العالية، وأوجد بكل كلية مكتبة خاصة بها غير مكتبته العامة . وانتدب أساتذة من رجال الجامعة ، ورجال وزارة المعارف بجانب مدرسيه

والفرق فى هذا فقط أن جامعة فؤاد الأول أغدق عليها من مال الدولة — وربما تحت تأثير الدعاية — فكانت لها أبنية ضخمة ؛ وأنشئ بها كراسى متنوعة للأساتذة ومساعديهم وجلبت لمكتبتها الكتب الحديثة والفنية . وأن الأزهر — وربما لإظهاره بمظهر المقصر فى رسالته أو لضعف شيوخه — لم تقتنع الدولة بالزيادة السخية فى ميزانيته ، ولم يتضح لها من المبررات ما يزحزحها عما تعتقد من أنها متفضلة على الأزهر إذا هى تركت له ما اعتاد إنفاقه سنوياً . والزيادة فى الإنفاق فى العصر الحديث تكون لزيادة المقابل من منفعة عامة أو خاصة . والأزهر فى أوقات كثيرة صور نفسه أو قبل أن يُصور بأنه يُمنح ولا يعطى

هذا الفرق لا يكسب جامعة فؤاد الأول قربها من المثال الجامعى ، كما لا يصور الأزهر بعيداً عن هذا المثال ، لأن هذا الفرق يتعلق بالشكل ، ولأنه نتيجة لقوة سلطان وضعف سلطان آخر ليس سلطان العلم وليس سلطان البحث

رجال جامعة فؤاد الأول أخرجوا كتباً وألفوا . أخرجوا على الطريقة الجامعية كتباً مفهرسة حسنة التبويب والتنظيم ، روعى فى التعليق عليها إثبات الفروق بين الروايات المختلفة ، والتعريف بما ورد فيها من مصادر متعددة . وألفوا كذلك كتباً ؛ ألفوا فى الفلسفة والتاريخ والأخلاق ، وفى غير الفلسفة والتاريخ والأخلاق . ولكن الكثير من هذه الكتب المؤلفة يلازمه الغموض فى التعبير عن الفكرة ، وتندر أو تنعدم فيها شخصية المؤلف . والغموض فى التعبير يدل غالباً على عدم نضوج الفكرة أو عدم هضمها عند المعبر ، وضعف الشخصية فى التأليف أو انعدامها يدل على سيطرة الروح المدرسية وضعف الروح الجامعية : فإخراج جامعة فؤاد الأول إخراج يسير على النهج الجامعى فى العرض، وتأليف رجالها لم يخرج بعد عن النطاق المدرسى ؛ وإذا كان للاخراج قيمته فى تكييف المستوى الجامعي ، فالمقدّم الأول لهذا المستوى هو التأليف العلمى الذى تبدو فيه شخصية المؤلف واضحة ، وليس هو جمعاً لمنثور الفكر أو تنظيماً لمشتت الآراء

لجامعة فؤاد الأول تسير بلا شك فى الطريق الجامعى ، وقطعت فيه شوطاً لا بأس به ، ولكن دونها والوصول إلى المستوى الجامعى خطوات أخرى يشق فيها السير ويكثر فيها التعثر ، وهى خطوات الشخصيات العلمية الجامعية

الأزهر أخرج فى نطاق ضيق ، وألّف فى نطاق ضيق كذلك ، لأنه ابتدأ منذ وقت قريب فقط يدرك أنه فى حاجة إلى إخراج ، وفى حاجة إلى تأليف ، وفى حاجة كذلك إلى ترجمة بعد أن كان لا يستطيع أن يتصور أنه فى حاجة إلى غير المتوارث من كتب وإلى غير المألوف من نمط فى إخراجها لضغط التقاليد على العقلية فيه ، وكما تندر الشخصية أو تنعدم فى تأليف جامعة فؤاد الأول ، تندر أو تنعدم كذلك فى تأليف الأزهريين . ولعل سبب هذه الظاهرة هنا وهناك هو قرب عهد مصر بالنهضة العلمية وقرب عهد المؤلفين — على الخصوص — بالاستقلال الشخصى . ولعل الرغبة فى كسب الرأى العام — وهو على ما به من شدة الولع والحرص على التقاليد — من أسباب عدم الاستقلال أو من أسباب عدم الجرأة فى الاستقلال

لا أنكر إذاً على جامعة فؤاد الأول أنها بدأت العمل الجامعى، كما لا أنكر على الأزهر ذلك الآن ؛ ولا أنكر على جامعة فؤاد الأول أن خطواتها فى السير الجامعى أسرع من الأزهر ، وأنها ستحقق المستوى الجامعى قبل الأزهر ، لا لضعف فى العقلية الأزهرية ، بل لأن للأزهر من مهمته الأولى وهى الدين والمحافظة عليه — ويتبع ذلك التقاليد ، وما أشق الفصل بينها وبين الدين — ما يقلل من سرعته فى السير ، ويعلل بطأه فى الوصول إلى المستوى الجامعى ، ولكنه سيصل

هل لنا الآن — إنصافاً للواقع — أن نطالب الطرفين بالاعتدال فى الدعوة لجامعة فؤاد الأول وبالاعتدال في التحدث عن تقصير الأزهر ؟ أم لنا أن نطالب الكتاب من الأزهريين فى الدعوة إلى أزهرهم بأن يحتذوا سنة رجال الجامعة ، إذ ربما يكون هؤلاء أحسن خبرة بالنفسية المصرية وعقلية الرأى العام المصرى ؟ فالتهويل لم يزل بعد من أخص مظاهر الحياة الشرقية ، ولم يزل كذلك سبباً قوياً من أسباب النجاح في حياتنا المصرية !

محمد البهى